

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 4 (2009) : 85 - 93
www.univ-ghardaia.dz/index.php/dz/component/content/article?id=130

التأويل وتحليل المحتوى في البحث العلمي الإنساني والاجتماعي

أ/ عقيلة مصيطفى قسم الأدب العربي المركز الجامعي – غرداية

التأويلية: هي مفهوم إجرائي عرف في تقنيات القراءة، وأدوات فهم النص، وآليات إفهامه وتبيان معانيه منذ أقدم العصور، تحديدا منذ عهد سقراط، وأرسطو طاليس وهو مفهوم ينبغي أن يندرج ضمن الإجرائية والآلية لا ضمن المذهبية.

بعض النقاد العرب ترجم هذا المصطلح إلى العربية في صورته الغربية فأطلق عليها الهرمينوطيفا. وهي ترجمة ثقيلة وهجينة مادام العرب قد عرفوا هذا المصطلح وتعاملوا معه تحت مصلح التأويل فلم يبق لنا إلا أن نستعمل التأويلية مقابل المصطلح الغربي، ثم إن الخوض في موضوع التأويلية ليس أمرا جديدا، بل إنه حقل خاص فيه الناس خوضا كثيرا من عهد سقراط إلى عهد هايدجر **Heidegger Martin1976-1989**، وغادامير **Hans george Gadamer** وبول ريكور**paul Ricoeur**، اوإمبرتو إيكو **(umberto Eco** .

التأويل في اللغة: من الأول وهو مبدأ الشيء والرجوع إلى أصله وأول إليه الشئ رجعه وألت عن الشئ ارتددت عنه وفي الدعاء لمن فقد شئ أول الله عليك ضالتك والتأويل عبارة الرؤيا وتأوَّل فيه الخير توسمه.والتأويل تفسير الكلام الذي تختلط معانيه.

ونتج عن قراءة الشرح: يقول عنها عبد الله ....: أن تكون بوضع كلمات تدليلية للمعاني هذا مجموعة قراءات أولها نفسها أو تكون تكريرا ساذجا يجتر الكلمات نفسها" وهذا لنمط القراءة موجود في تراثنا البلاغي والنقدي فقد أثار المرجاني إلى المعنى وإلى معنى المعنى خالص عنده فالمفهوم من الظاهر أما معنى المعنى فيحتاج إلى إجراء تأويل أو

قراءة تأويلية 1

الجديد في موضوعنا يكمن في المقارنة بين جهود الغربيين في بلورة هذا المفهوم وتطويعه لفهم النصوص على اختلاف أشكالها وأجناسها من التوراة إلى النصوص الفلسفية المعقدة إلى النصوص الشعرية ثم ربط كل ذلك بجهود العلماء المسلمين في تعاملهم مع هذا المفهوم، خاصة عند تأويلهم الكثيرمن آيات القرآن وكذا الكثير من الأحاديث النبوية.

التأويلية في الثقافة الغربية: مراعاة للتراتب الزمني فقد سبق الإغريق إلى هذا المصطلح وهذا المصطلح عندهم لا صلة له بالنص الأدبي بل هو من مصطلحات الفلسفة وأدواتها في قراءة النصوص الدينية والفلسفية كالتوراة خاصة حتى قيل"التأويل المقدس" ثم توسع استعماله وصار يطبق على كل ما هو رمزي ثم انتقل إلى الأعمال الشعرية والنثرية واستعمل لفهم كل الإبداعات والحكايات الأسطورية والأحلام.

وما يميز التأويلية أنها كثيرا ما تعتمد غلى إيراد السياق الإجتماعي والتاريخي وتحاول بهذا العمل المعقد استخراج كل الدلالات الممكنة والمحتملة بينما يرى بيار فيددا " piere Fedida" أن مصطلح التأويل اعتدى أشد تعقيدا وأبعد إشكالية منذ دخل في حقل التأمل الفلسفي والمعرفي الخاص بعلوم الإنسان فالحديث عن التأويل يعني افتراض أن قراءة لا تكني لفهم المعنى الذي يجب أن يكون مضاعفا.

إن القراءات التأويلية الموجودة في كتب التراث لو تأتى لها جامع حصيف وناقد مدقق لخرج منها بأدق النظريات التي ننسها إلى الحداثة وما بعد الحداثة.وما لف لفها من المصطلحات الحديثة المنسوبة إلى الدراسات الغربية.

الفرق بين التفسير والتأويل: بلغت التأويلية درجة الرقي على يد المفكر الألماني ولهلم ديلتاي حيث ميز بين مفهومين كبيرين في قراءة النصوص ومعالجتها وتحليلها وهما التفسير والتأويل فخص التفسير بالعلوم الطبيعية والتأويل بالعلوم الإنسانية – خاصة التاريخ– وهذا التميز الذي جاءت به لا يحل المشكلة المنهجية في تحديد التقارب الدلالي بين الإجراءين وإلا فهل يحق أن يلحق القرآن الكريم بالعلوم الطبيعية على مذهب دالتاي، والحقيقة أن التأويل يتدخل حين بلوغ الدرجة القصوى من الفهم لمسألة معقدة لأن القراءة كثيرا ما

تكون بعيدة عن المؤلف وحالته الذهنية ونيابته ومقاصده وميوله إلى درجة أن فهم النص يأخذ طابعا مستقلا.

أنماط القراءة: للقراءة تعريفان:

01– هي ذلك الفعل الذي يقوم به الملتقى من خلال تتبعه لكلمات النص.

02– هي نشاط يصرفه الملتقى اتجاه النص بحثا عن إيحاءاته ومعاينة دلالاته في هدفين هما: هدف نفعي/ هدف جمالي.

– المفهوم الأول للقراءة: هي معالجة لعالم مكتمل ذي بنية صارمة تنفتح على الذاكرة الجماعية وتؤدي إلى ممارسة أليفة وواضحة لأنها تقترب من نص معلوم .

فيرى أن قراءة النصوص سواء كانت أدبية أو غيرها ما هي إلا مجرد استخراج للمدلولات أي المعاني الكامنة فيها ولا ترفض فكرة المقصدية التي تجرنا إلى الحديث عن الشخص القاصد أو المتكلم صاحب النص، فهذا النمط يؤمن أن:

– مدلولات النصوص ثابتة ونهايته تستخرجها كل قراءة على مدى العصور.

– المدلولات مرتبطة بإرادة قصدية وقاصدة هي إرادة المتكلم صاحب النص.

– المفهوم الثاني للقراءة: هي تفاعل بين نصي المبدع والمتلقي وتتجلى فيها يقوم به المتلقي من شرح وتفسير وتأويل ونقد مستعينا بتكوينه الفكري واللاشعوري.

فيرى أن النصوص تؤول حسب قدرات القارئ على الاستيعاب والفهم أي حسب نياتهم ومقاصدهم فمعظم الذين تحدثوا عن مستويات الفهم والتأويل في الثقافة العربية نحو الجرجاني يرون أن سوء الفهم أو استخدام النيات المسبقة من لدن القراءة والمؤولين إنما هو انحراف عن حقائق النصوص المقصودة أما التأويل بقصد الوصول إلى معنى المعنى فهو أعمق فهم ممكن لكنه لا يعدو أن يكون مجرد فهم معمق للنصوص وهكذا يصبح النمط الأول هو الأصل والنمط الثاني مجرد حدث عرضي.

– تنحصر وظيفة القراء في مستويين:

1– الفهم وهو إدراك المقاصد من خلال النمو اللفظي للنص.

2–التأويل الفاهم للنص أي البلوغ المعاني البعيدة بعد مجاوزة المعاني الظاهرة.

فالقراء الذين يستخدمون التأويل قصد أغراض خاصة فهم يوجدون خارج دائرة الفهم. والصواب معا، وقد أوضح الجرجاني أن البحث عن المعاني العميقة في النصوص شبيه ببحث الغواص عن اللؤلؤ في قاع البحر.

– فمن المتعذر دائما إيقاف الحوار حول النصوص بدعوى أن قارئا ما قد وصل إلى حقيقتها النهائية لذلك فالقراء يدرجون فهمهم للنصوص في سياق حاجاتهم اليومية وأغراضهم وأهوائهم دون أن يعترفوا بأن مقاصدهم وأهواءهم هي التي جعلتهم يفهمون أحيانا ما اعتبروه حقيقة فيها.

إذ أن مهمة المبدع في شكلها الظاهر تنتهي بكتابة الحرف الأخير من النص إلا أن ما يكون قد أنجزه سرعان ما يدخل في مرحلة جديدة من دورة حياته هذه المرة في أحضان المتلقي فيتحاور الاثنان مع بعضهما البعض بهدف اكتمال الأول.

شروط القراءة التأويلية: تلح القراءة التأويلية على القراءة اللامتساوية والمغايرة وهي من شروط التأويل الأساسية، فالظاهرة النصية عامة والأدبية خاصة لا تكتمل إلا بتعدد وجهات والاختلاف، ثم أن المعنى المطلق والحقيقة الثابتة لا وجود لها في النصوص الأدبية وإنما هناك حقائق تلوح من خلف النص ولا تنكشف للقارئ دفعة واحدة، فالرسالة حسب نظرية جاكبسون في الاتصال اللغوي لاتتجه مباشرة من المرسل إلى المرسل إليه كماهو في الخطابات العادية وإنما ترتد على ذاتها وتتكور على معناها وليس بوسع القراءة مهما تعددت أن تقبض على المعنى الكلي للنص وإنما تظهر بدلالات يقيمها القارئ حسب ثقافته ووعيه وواقعه النفسي والاجتماعي .

القراءة التأويلية والأدب: لأن الأدب عبارة عن إشارات وعلامات والعلامة تستعصي على الضبط، فإذا كانت العلوم الأخرى تعتبر الحقيقة تصحيحا متواصلا للخطأ فالأدب لا يختزل في أدلة وأقيسة عقلية.

فاللغة لا سيما المجازية منها تنطوي على معنى فائض فتحيل على رموز ودلالات وفي ذلك رجوع إلى طبيعة اللغة الأولى قبل أن تفيدها الاستعمال الإنساني في أنساق ودلالات، فعندما ينتقل التأويل من الحقيقة إلى المجاز يرتد إلى طبيعة اللغة فيكون أصلا وتكون الحقيقة

فرعا.

دواعي القراءة التأويلية: يمكن للتأويلية أن تمثل في موقفين اثنين:

1- عندما يصطدم القارئ بصعوبة في فهم النص فيعمد إلى التساؤل عن مقصديته ومقصده من التعبير على هذا النحو.

2- عندما يريد متلقى النص أن يستحيل هو نفسه إلى باث فيصطنع طائفة من الإجراءات التأويلية ابتغاء تبليغ متلقيه ما فهم من النص وهي درجة أعلى من الفهم فتبدي نتاجا جديدا قائما على التناص مع النص المؤول والبث به إلى متلقين كثر.

في هذا المستوى يحذر إيكو من مغبة مساءلة النص حد التأويل السيئ أو المغلوط أو أن يقع الانزلاق إلى استعمال النص لا إلى تأويله.

تقنيات التأويل: تتم المقاربة التأويلية على النحو التالي:

1. البحث عن اللاحدود في الدلالات التي ضمنها المؤلف
2. البحث اللامحدود في الدلالات التي جهلها المؤلف وأنتجها

ما طبيعة المقصدية التي ينصرف إليها التأويل: ثار حولها الجدل هل ينصرف التأويل إلى البحث عن مقصدية التأليف (النص) أم إلى مقصدية المؤلف (الناص) فلا يمكن أن نقرأ النص على وجه الضرورة على المقصدية التي كتب الكاتب عليها نصه، وهي غاية كثيرا ما توصف بالاستحالة وذلك للتباعد الزماني والمكاني بين الباث والمتلقى من أجل ذلك أصبح مباحا للملتقى أن يتأول قراءة النص انطلاقا من سياقه ونسقه على النحو الذي يرى هو لا على النحو الذي كان يراه المؤلف الذي مقصديته مجهولة في كثير من الأطوار لدى المتلقيى المؤول، أم مقصدية القراءة وهذا النقاش كلاسيكي فهل نبحث في النص بالإحالة إلى نسقه أم بالإحالة إلى أنساق القارئ وميوله ورغباته، والصواب أن ننصرف إلى قراءة النص بتعويمه في سياق المؤول الإجتماعي والتاريخي.

وهذا هو الذي يجعل القراءة مفتوحة ولا تدعي نهائية الموقف أو الحكم بينما لو وقعت قراءة النص

دون إجراء تأويلي فإنها تتورط في المكابرة والعناد وصارت قراءة معلقة وصارمة

ويمكن وصفها بالمستحيلة.2

وكنتيجة فالتأويلية من حيث هي إجراء معرفي لا تدعي أنها قادرة على إدراك الفهم الصحيح للنص المقروء وإنما غايتها العظمى أن تسعى إلى قراءة مفتوحة أي اقتراح قراءة واحدة من بين قراءات أخرى. فهذه المواصفة لا تعتبر ضعفا في هذه الإجرائية بقدر ما تكون قوة فهي تخدم الناص والنص والقارئ جميعا فيخرج كل طرف راضيا، ذلك أن الكاتب يفقد حيازته على النص بمجرد أن يلقي به فإلى القراء فيصبح ملكا مشاعا بينهم يفهمونه على النحو الذي يشاؤون انطلاقا نسقه وسياقاتهم ثم إن القارئ لا أحد يلومه إذا تبين أنه أخطأ سبيله إلى القراءة المثلى أو على الأقل القريبة من ذلك.

الفرق بين استعمال النص وتأويله: إن استعمال النص فيه شيء من الهجنة قياسا إلى تأويله فهو ادعاء للنص المقروء بما ليس فيه، وفي ذلك جرأة على النص وصاحبه.

وبذلك تقع قراءته في دائرة التأويل السيئ أو المغلوط للنص فإذا كانت الحصول على الدلالة يخضع بكل أسف للذوق والوعي الثقافي للمحلل فإن ذلك لا يعني غياب الحد الأدنى من العرف الذي يسمح بتحديد المعالم الكبرى لمقصدية النص التي ترتسم للمتلقي من خلال المضمون المتداول والزمن الذي قيل فيه والبيئة والخلفية الثقافية التي أنتجته، لذلك فاستعمال النص ضرب من الخروج عن الإطار السليم فلا يتجاوز التأويل الخط الأحمر للمقصدية في حين أن الاستعمال قد يتجاوز هذا إلى مجاهل سحيقة لا صلة لها سياق النص ونسقه.

تبحث الدراسة في ماهي الإمكانات المتاحة لجعل مفهوم المقصدية يتراجع أمام مفهوم جديد مقترح لفهم آليات التفاعل بين القارئ والنصوص سواء كانت أدبية أو غيرها وهو مفهوم المحصلة .

عرض التحليل والتأويل: لا بد من تقييم الفرضية لتحديد صحتها التامة والجزئية كذلك إن قررنا هدفا للبحث لا بد أن تقوم بتقييم مدى قربنا أو بعدنا عن الهدف، كذلك لا بد من توسع المناقشة باستخراج نتائج ما قمنا به وما لاحظناه وماقيمناه، فنكون بذلك قد تعمقنا في المادة المحصل عليها وحاولنا استخراج كل الثراء الذي يمكن أن تتضمنه بإبراز

الجوانب المبتدعة والاكتشافات النادرة

وإعادة النظر في المعارف أو طرق العمل المعتادة.

– مراحل التحليل والتأويل: هي من مراحل البحث العابرة للتخصصات، يمر البحث بمراحل تعطي الباحث فرصة تقييم الأشواط والتأكد من أنه يسير في الاتجاه الصحيح:

1–التعريف بمشكلة البحث: تحديدها وضبطها وهي الأساس الذي يقوم عليه البحث.

2–البناء التقني لا بد من تحديد تقنية جمع المعلومات أو المنهج أو الاستمارة، الملاحظة

3–جمع المعطيات: يجمع المعلومات حسب التقنية التي أقرها لكنها تقدم معلومات خام معتبرة قابلة للتحليل والتأويل.

4–التحليل والتأويل :أي تحليل المعطيات وتأويل النتائج.

تحليل المحتوى: هي تقنية للتقصي العلمي تطبق على المواد المكتوبة والسمعية والمرئية، حيث يكون المحتوى غير رقمي يحتاج إلى فهم وتفسير ومقارنة، و ليس فقط الآثار الحاضرة بل الماضية حين تسلط الأضواء على حادث فرعي أو جماعي توجد حوله آثار مكتوبة، فتحليل المحتوى هو الأداة الأكثر استعمالا بالنسبة للمؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة وعلماء النفس ووسائل الإعلام والآداب والكتب المدرسية والمسلسلات التليفزيونية، حصص الأطفال، رسائل الإشهار، الأغاني ...إلخ.

– والتحليل نمطان: تحليل المحتوى الظاهر للوثيقة: أي دراسة ماهو معلن عليه بشكل واضح في الوثيقة نحو دراسة المحتوى الظاهري للبرنامج حزب سياسي.

تحليل المستوى الباطني للوثيقة: إن محتوى الباطن هو ما لم يتم التعبير عنه بشكل واضح في الوثيقة لذلك لا بد من بحث المعنى الخفي.

وتقنية تحليل المحتوى تتطلب وقتا طويلا لكنها تسمح في النهاية بالفحص المعمق للوثائق .

ثراء التأويل: هي تقنية تحليل المستوى من القيام بدراسات متعددة لنفس الوثيقة حيث يتعاقب عليها عدد من المحللين كل حسب اتجاهه وثقافته فقد يهدف تحليل الخرائط المنجزة

منذ قرنين إلى التأمل في تاريخ تقنيات إنجاز الخرائط منذ زمن طويل، كما تمكن هذه الدراسة من إبراز تطور مختلف البلدان فيما يتعلق بحدودها الإقليمية .

فالصورة البلاغية إذا طرحت في الخطاب يعني سؤلا قد طرح فيه ويأتي الجواب سؤلا في حد ذاته لأنه يجد واحد من الجواب وتبقى بقية الوجوه متعلقة بأسئلة جديدة تطرح وهكذا أشرح الصور الإشعارية والمجازية والكائنة هو توفيق هو توفيق لمعنى السؤال لكنها تبقى متحفظة على الدوام باستمرارية السؤال ثم إ الأدب هو من أكثر الحقول التعبيرية التي تحتوي على القيم الأخلاقية

– الأدب بين المقصدية والمحصلة: ترى نظرية الجرجاني أن المعنى له الأسبقية في الفكر واللفظ له الأسبقية في النطق ولا يصبح تصور أسبقية أحدهما على الآخر لأن المعاني تتجلى على الفور من خلال الألفاظ لكن المعنى لا يصاع من خلال الألفاظ إلا إذا كانت المعاني قد تم تحديدها بصورة كاملة في الذهن، فالتصور القديم الذي كان سائدا يعتبر العناصر التخيلية مجرد آليات تختفي وراءها تصورات المتكلم ويكفي أن نفكها لنحصل على مقصديته، فالنص والأدب من هذا المنظور لا يفيد صاحبه بل غيره من الناس وهو ما يتلائم مع مفهوم الذات في الوعي القديم الواعية بنفسها العارفة بما تريد قوله وبالكيفية التي تحقق ذلك وأنه على الآخرين أن يصلوا إلى ماضمنته أعمالها من دلالات .

بينما أكد فرويد أن عالمي الأحلام والإبداع لا يعبران عن وعي الكاتب بل عن لاوعيه وانقياده وهذا تحول خطير وحاسم في فهم تكوين الذات فعن طريق الإبداع تعثر عن وجود جديد، أي عن كينونتها القعدة ومن الناحية المنطقية لا يمكن أن يكون الأديب مستفيدا من أدبه إذا كان عارفا تمام المعرفة به قبل إخراجه إلى الوجود، لذا تبدو نظرية المقصدية عاجزة عن إثبات جدوى كتابة الأدب بالنسبة لصاحبه، فهذا الإشكال تجاوزته الأبحاث النفسية والأنطربولوجية المعاصرة التي رأت أن ما لا يعرفه الأديب في عالم أدبه هو جزء أساسي في تكوين الأدب، كما تجدر الإشارة إلى أن فرويد لم يستطع يوما أن ينفي العناصر الواعية في الأدب وإلا لما أمكن الأديب أن يرتب عناصر موضوعه وأن يستفيد من ذكرياته ورصيده اللغوي لصياغة عمله، أي أنه لايشرع في الكتابة حتى تكون في ذهنه

على الأقل خطاطة مشروع ما.

القصدية التي نريدها ليست قصدية الذات المبدعة بل قصدية الصور النصية فيقوم النص بهذا التوليد الخيالي كل مرة يتعرض فيها لفعل القراءة، فالذات المبدعة هي نفسها تستقبل هذه الصور بإندهاش وهذه الحاجة هي ما تدفعنا إلى الحديث عن المحصلة أكثر مما نتحدث عن القصدية3.

المحصلة: هي نتاج التفاعل بين العناصر النصبية أو ما يسميه إيكو إستراتجية النص والذات المبدعة فتتفاعل الذات القارئة بحمولتها الثقافية والنفسية وإكراهات العصر وهو ما جعل رواد نظرية التلقي يتحدثون عن التفاعل بدل التواصل، ومفهوم المحصلة بات اليوم من المفاهيم المناسبة المرشحة لتعويض مفهوم المقصدية في القراءة وهو المجسد لدينامية القراءة 4.

محاذير التأويل: ألا نطلق العنان لتحليلنا فنتجاوز الحدود النسبية للنصوص، فيمكن أن تنتج بعض الأخطاء أثناء التحليل والتأويل أو المراحل السابقة لها، فمعرفة هذه الأخطاء وتصحيحها ضمان لمصداقية تقرير البحث وخطأ التأويل هو أن نستنتج من المعطيات أشياء لا تدل عليها فلابد من إعادة الفحص إذا تبين أن النتائج المرتقبة بعيدة عن الوقائع.

الهوامش:

1- ينظر أبوالحسن أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الكتب العلمية، الجزء الأول، ص 158

2- ينظر كلام شهيدات، نظرية لسانيات التواصل، مجلة علامات في النقد، العدد 37، سبتمبر 2000، ص 400

3- ينظر أمبرتو إيكو: القاريء في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة: أنطوان أبوزيد، المركز الثقافي العربي، دط، 1996، ص 67

4- ينظر عبدالمالك مرتاض، التأويلية بين المقدس والمدنس، مجلة عالم الفكر، العدد 29، سبتمبر 2000، ص 264